٤١١٤٢
تاريخ ٢٧ / ٣ / ٨٥

فصول

مجلة النقد الأدبي

تصدر كل ثلاثة أشهر

٣

المجلد الأول
العدد الثالث
أبريل ١٩٨١
جمادى الآخرة ١٤٠١

کتابخانه و مرکز اطلاع رسانی
بنیاد دایرة المعارف اسلامی

فصول

مجلة النقد الأدبى

تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة صلاح عبد الصبور

رئيس التحرير
عز الدين اسماعيل

نائب رئيس التحرير
جابر عصفور

مدير التحرير
سامى خشبة

سكرتيرة التحرير
اعتدال عثمان

الإخراج الفنى
فتحى أحمد

التنفيذ الفنى
إبراهيم السعدنى

مستشارو التحرير
زكى نجيب محمود
سهير القلماوى
شوقى ضيف
عبد الحميد يونس
عبد القادر القط
مجدى وهبه
مصطفى سويف
نجيب محفوظ
يحيى حقى

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

● الأسعار فى البلاد العربية

الكويت ٧٥٠ فلسا - الخليج العربى ١٥ ريالا قطريا - البحرين ١ دينار - العراق ١ دينار - سوريا ١٤ ليرة - لبنان ١٠ ليرة - الأردن ٨٥٠ فلسا - السعودية ١٥ ريالا - السودان ١ جنيه - تونس ١ دينار - الجزائر ١٥ دينارا - المغرب ١٥ درهما - اليمن ١٢ ريالا - ليبيا ١ دينار

● الاشتراكات

● الاشتراكات من الداخل :

عن سنة (أربعة أعداد) ٣٠٠ قرشا . . ومصاريف البريد ١٠٠ قرش
ترسل الاشتراكات بحوالة بريدية حكومية .

● الاشتراكات من الخارج :

عن سنة (أربعة أعداد) ١٥ دولارا للأفراد و ٢٤ دولارا للهيئات . مضافا إليها مصاريف البريد (البلاد العربية - ما يعادل ٥ دولار)
(أمريكا وأوروبا ١٥ دولار) .

● ترسل الاشتراكات على العنوان التالى :

مجلة فصول - الهيئة المصرية العامة للكتاب شارع كورنيش النيل - بولاق - القاهرة - ج . ع . م تليفون المجلة ٩٧٣٦٤٩

● الاعلانات

يتفق عليها مع ادارة المجلة أو مندوبيها المعتمدين .

محتويات العـدد

مناهج النقد الأدبي المعاصر

الجزء الثاني

		صفحة
ـ أما قبل		٥
ـ هذا العدد		٦
ـ النقد العربي القديم والمنهجية	عبد القادر القط	١٣
ـ قراءة في دلائل الاعجاز	مصطفى ناصف	٣٣
ـ السيميوطيقا : مفاهيم وأبعاد	أمينة رشيد	٤١
ـ سيميولوجيا اللغة	ترجمة : سيزا قاسم	٥٥
ـ سيميولوجيا المسرح	سامية أسعد	٦٧
ـ استدارة الزمن عند جارثيا ماركيز	تأليف : سيزار سيجر ترجمة : اعتدال عثمان	٧٩
ـ التفسير الأسطوري في النقد الأدبي	سمير سرحان	٩٩
ـ المنهج الأسطوري مقارنا	فريال غزول	١٠٥
ـ التفسير الأسطوري للشعر القديم	أحمد كمال زكي	١١٥
ـ التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي	إبراهيم عبد الرحمن	١٢٧
ـ الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص	نصر أبو زيد	١٤١
ـ نقاد نجيب محفوظ : ملاحظات أولية	جابر عصفور	١٦١
ـ التناول الظاهري للأدب ـ نظريته ومناهجه	تأليف : روبرت ماجليولا ترجمة : عبد الفتاح الديدي	١٨١
ـ المدخل الأنطولوجي	تأليف : و. ك. ويمزات ترجمة : ماهر شفيق فريد	١٩٣
ـ أورويل الناقد الأدبي	رمسيس عوض	٢٠٥
ـ جورج إليوت بين النقاد	إنجيل بطرس سمعان	٢١٩
ـ اتجاهات النقد الرئيسية في القرن العشرين	تأليف : رينيه ويليك ترجمة : إبراهيم حمادة	٢٣٣
ـ ندوة العدد (مشكلة المنهج في النقد العربي المعاصر)	إعداد : أحمد بدوي	٢٤١
الواقع الأدبي		٢٥٩
تجربة نقدية :		
ـ تحليل سيميولوجي لمسرحية «الأستاذ»	هدى وصفي	٢٦١
متابعات أدبية :		
ـ الأعمى والذئب واللقاء المستحيل	سيد النساج	٢٦٧
ـ محاولة لاكتشاف الجذور	سامي خشبه	٢٧٣
عرض دراسات حديثة :		
ـ نقد الرواية	تأليف : نبيلة إبراهيم عرض : مدحت الجيار	٢٨٢
ـ حركية الابداع	تأليف : خالدة سعيد عرض : محمد بدوي	٢٨٩
ـ استدعاء الشخصيات التراثية	تأليف : علي عشري زايد عرض : يسرى العزب	٢٩٣
الدوريات الأجنبية :		
ـ الدوريات الإنجليزية	نادية الخولي فؤاد أحمد	٢٩٨
ـ الدوريات الفرنسية		٣٠٢
رسائل جامعية		
ـ عرض رسائل	ثناء أنس الوجود	٣٠٤
ببليوجرافيا		٣٠٩
تقارير :		
ـ مؤتمر الفولكلور والتنمية الاجتماعية	نبيلة إبراهيم	٣١١
ـ مؤتمر رفاعة الطهطاوي	نصار عبد الله	٣١٤
ـ This Issue	ترجمة محمود عياد	

سيميولوجيا اللغة «١»

تأليف : اميل بنفنست
ترجمة : سيزا قاسم

يجب أن تبذل السيميولوجيا جهداً عظيماً حتى تلمس حدود مجالها . «٢»

دى سوسير

منذ أن أدرك بيرس Peirce وسوسير Saussure – وهما عالمان عبقريان يقفان على طرفى نقيض ، وإن عمل كلاهما فى نفس الفترة الزمنية دون معرفة أى منهما للآخر[٣] – إمكانية قيام علم للعلامات ، ومنذ أن بدآ فى تأسيسه ، ظهرت مشكلة جسيمة لم تتبلور بعد فى شكل محدد ، وذلك لأنها لم تطرح بوضوح وسط خضم الفوضى التى تسود مجال دراسة العلامات ، وهذه المشكلة هى : ما موضع اللغة بين نظم العلامات ؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

لقد استعار بيرس مصطلح Semeiotic من التسمية التى أطلقها جون لوك على العلم الخاص بالعلامات والدلالات المنبثق عن المنطق ، والذى كان لوك ينظر إليه باعتباره علم اللغة ، وأنفق بيرس حياته فى تطوير هذا المفهوم . ويشهد الكم الهائل من ملاحظات بيرس على الجهد العنيد الذى بذله فى تحليل المفاهيم الخاصة بالمنطق والرياضة والفيزياء فى إطار السيميوطيقا . ولقد امتد سعيه ليشمل المفاهيم الخاصة بعلم النفس والأديان . واستغرق تأمل بيرس وبحثه فى الموضوع حياته كلها . واستعان فى سعيه هذا بجهاز عقلى من التعريفات – أخذ يزداد تعقيدا مع مرور الزمن – يهدف إلى تصنيف الواقع والمدرك والمعاش فى مجموعات مختلفة من العلامات . ولكى يتوصل بيرس إلى هذا «الجبر الكونى للعلاقات»[٤] . قسم العلامات إلى ثلاث مجموعات : الأيقونات Icones والمؤشرات Indexes والرموز Symbols . وقد يكون هذا التقسيم الذى يكمن فى أساس المعمار المنطقى الهائل الذى بناه بيرس ، هو الشئ الوحيد المتبقى منه .

أما فيما يتعلق باللغة فلم يعرب بيرس عن شئ محدد أو مفصل . فإنه يرى أن اللغة موجودة فى كل مكان وفى لا مكان فى آن واحد : وإن كان بيرس قد أبدى اهتماما فى بعض الأحيان باللغة ، فإنه لم يأبه بالطريقة التى تؤدى اللغة بها وظيفتها . إن اللغة بالنسبة إليه لا تتعدى كونها كلمات ، والكلمات هى علامات غير أنها لا تنتمى إلى فئة خاصة من العلامات ، أو حتى إلى مجموعة ذات خصائص ثابتة ، فبينما تنتمى معظم الكلمات إلى مجموعة الرموز فإن بعضها ينتمى إلى مجموعة المؤشرات مثل أسماء الإشارة . وبناء على ذلك فإن بيرس يصنف أسماء الإشارة ضمن الإيماءات التى تقابلها فى المعنى ، أى ضمن إيماءات الإشارة . ولم يلتفت بيرس إلى أن الإيماءة ذات دلالة عالمية ، بينما يدخل اسم الإشارة فى إطار نظام معين من العلامات الشفاهية هو اللغة ، وبالذات فى إطار نظام فرعى معين من اللغة هو اللغة القومية . ومن جانب آخر يمكن للكلمة الواحدة أن تلعب دور عدد من العلامات مثل العلامة الصفة Qualisign أو العلامة المفردة Sinsign أو العلامة النمط[٥] Legisign . وفى الواقع فإننا لا نرى القيمة العملية لهذه التفرقة ولا كيف يمكن أن تساعد عالم اللغة على بناء سيميولوجيا اللغة كنظام . إن الصعوبة التى تواجه من يحاول تطبيق مفاهيم بيرس – بخلاف تقسيمه الثلاثى المعروف الذى يظل إطارا بالغ العمومية – هى أن بيرس يضع العلامة كأساس للعالم بأسره ، إذ إن العلامة هى نقطة الانطلاق التى يبنى عليها تعريف كل عنصر على حدة ، وهى – أيضا – المبدأ الذى يحكم تفسير مجموعات العناصر ، سواء كانت هذه المجموعات مجردة أو ملموسة . إن الإنسان ، فيما يراه بيرس ، علامة فى كليته ، وفكره أيضا علامة[٦] ، وكذلك مشاعره[٧] ، ولكن هذه العلامات – فى نهاية المطاف – لا تحيل إلا إلى علامات أخرى ، فكيف يمكن أن تحيل إلى

شئ ليس علامة فى حد ذاته ؟ هل نستطيع أن نجد نقطة ثابتة نستطيع أن نرسى فيها العلاقة الأولى للعلامة ؟ إن المعيار السيميولوجى الذى أنشأه بيرس يتجاوز تعريفه . فلابد أن يقبل النظام الاختلاف بين العلامة والمدلول عليه حتى لا يلغى مفهوم العلامة نفسه فى عملية تكاثر تمتد إلى ما لا نهاية ، ولابد أيضا أن تحتوى العلامة فى نظام من العلامات ، فهذا هو منبع الدلالة نفسها وشرط قيامها . ويظهر مما سبق ـ وعلى عكس ما يدعيه بيرس ـ أن العلامات فى جملتها لا تعمل بنفس الطريقة ، ولا تنتمى إلى نظام واحد . ولذلك فلابد من تطوير أنظمة مختلفة من العلامات ، ومن تحديد نوعية العلاقة التى تقوم بينها ، فقد تكون هذه العلاقة علاقة تعارض أو علاقة تقابل .

ويظهر سوسير فى هذا المقام فى الموقف المقابل لبيرس سواء أكان ذلك فى المنهج أو فى التطبيق ، ذلك لأن التأمل عند سوسير ينطلق من اللغة نفسها ، ويتخذ اللغة ـ ولا شئ سوى اللغة ـ مادة لدراسته . فاللغة تدرس اللغة فى ذاتها ولذاتها . ومن هنا تقع على عاتق عالم اللغة مهام ثلاث :

الأولى : هى وصف جميع اللغات المعروفة سياقيا وتزامنيا .

والثانية : هى استكناه القوانين العامة التى تحكم جميع اللغات .

والثالثة : هى تحديد مجال علم اللغة نفسه وتعريفه [٨] .

ولم يأبه أحد إلى الغرابة الكامنة وراء هذا المظهر المتعقل للبرنامج ، فإن هذه الغرابة هى التى تعطيه قوته وجرأته فى نفس الوقت . إن المهمة الثالثة التى يسندها علم اللغة إلى نفسه هى أن يعرف نفسه . وهذه المهمة إذا أردنا أن نفهمها فى شمولها تحتوى المهمتين الأوليين وتكاد تلغيهما . إذ كيف يستطيع علم اللغة أن يقرر حدوده وأن يعرف نفسه إلا من خلال تحديد مادته الخاصة ـ وهى اللغة وتعريفها ؟ ولكن هل يستطيع علم اللغة أن يفى بالمهمتين الأخريين ـ اللتين وضعتا فى المرتبة الأولى والثانية من التنفيذ ـ وهما وصف اللغات وتأريخها ؟ كيف يستطيع «علم اللغة» أن يبحث عن القوى الدائمة والعالمية التى تتحكم فى جميع اللغات ، وأن يستكنه القوانين العامة التى تجمع بين كل الظواهر الخاصة فى التاريخ ؟ كيف يستطيع علم اللغة أن يقوم بهذه المهام إن لم يتم ـ بداية ـ تعريف قدراته وإمكانياته ، وبالتالى قدرة العلم على إدراك طبيعة هذا الكيان الذى نسميه «اللغة» وسماته الخاصة المميزة . إن كل شئ يتوقف على هذا الشرط ، ولا يستطيع عالم اللغة أن يقوم بمهمة من هذه المهام مستقلة عن الأخرى ، أو أن يتكفل بإحداها على أتم وجه إن لم يدرك بوعى تام الخصوصية التى تميز اللغة عن غيرها من المواد التى تدرسها العلوم . ويمكن اعتبار هذا الإدراك الواعى المنطلق الأساس الذى يسبق أية خطوات عملية أو معرفية لعلم اللغة . إذ إن المهمة الثالثة ، وهى مهمة التعريف وتحديد المجال ، تتفوق على المهمتين الأخريين ، فلا تقوم على فرضية إتمامها ، بل تفرض على علم اللغة أن يتجاوز حدود المهمتين الأوليين إلى الدرجة التى تجعل اكتمالها مشروطاً باكتماله كعلم . هنا تكمن الجدة التى يتميز بها برنامج سوسير . وتوضح قراءة المحاضرات فى علم اللغة ـ بكل ـ تأكيد ـ أن سوسير يرى أن علم اللغة لا يمكن أن ينشأ إلا من خلال تعريفه لنفسه عن طريق اكتشاف مادته .

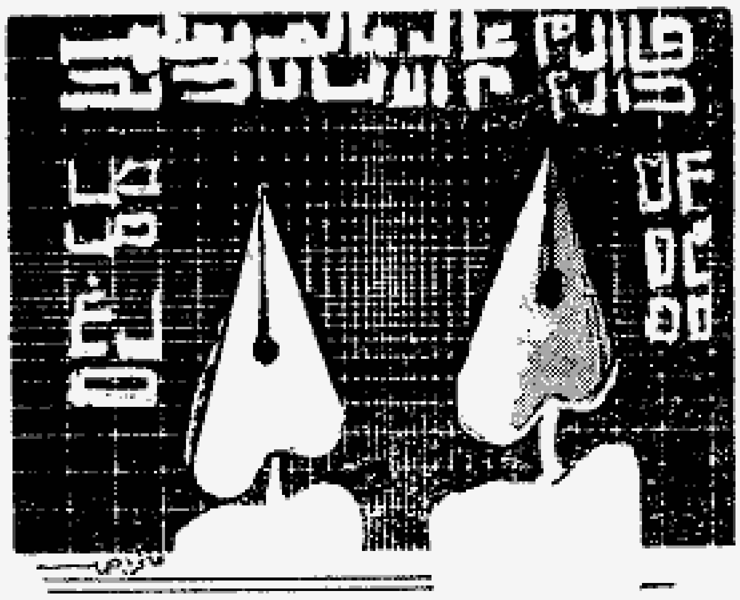

وينطلق كل شئ من السؤال التالى : «ما هى المادة الشاملة والملموسة لعلم اللغة ؟» [٩] ولقد كانت الخطوة الأولى تهدف إلى هدم الإجابات السابقة على هذا السؤال : «حينما نظرنا فإننا لا نجد فى أى مجال المادة الشاملة لعلم اللغة [١٠]» وبعد أن مهّد سوسير الطريق على هذا النحو ، وضع الخطوة الأولى لمنهجه : لابد من الفصل بين اللغة واللسان . لماذا ؟ فلنتأمل السطور التى تحتوى المفاهيم الجوهرية التى قدمها سوسير : «**إذا اتخذنا اللسان فى جملته فإننا نجده متعدد الأشكال غير متجانس . فاللسان ينتمى إلى عدد من المجالات المختلفة فى آن واحد : فينتمى إلى المجال الفيزيق والفزيولوجى والنفسى . كما أنه ينتمى إلى المجال الفردى والجماعى . ولذلك يصعب تصنيفه ضمن أى من المقولات الكلية التى تندرج تحتها الظواهر الإنسانية ، إذ يستحيل استكناه وحدته .**

أما بالنسبة للغة فالأمر يختلف تماما ، فاللغة تمثل وحدة فى ذاتها وتمثل أيضا مبدأ من مبادئ التصنيف . وعندما نعطى اللغة محل الصدارة بين الظواهر اللسانية فإننا ندخل نظاما طبيعيا على مجموعة من الظواهر لا تخضع من تلقاء نفسها لأى نوع من التصنيف» . [١١]

وكان شغل سوسير الشاغل هو اكتشاف مبدأ الوحدة الذى يهيمن على تعدد الظواهر التى تسود خبرتنا باللسان . فلا يتأتى أن تصنف الظواهر اللسانية ضمن الظواهر الإنسانية إلا من خلال هذا المبدأ وحده . ويوفر اختزال اللسان فى اللغة الشرط المزدوج الذى يسمح بفرض اللغة كمبدأ للوحدة من جانب ، ومن ثم يسمح بإفساح مجال للغة بين الظواهر الإنسانية . وإذا أدخلنا فى مجال دراستنا مبدأ الوحدة ومبدأ التصنيف فإننا ندخل مفهومين يؤسسان ـ بدورهما ـ السيميولوجيا .

وهذان المفهومان ضروريان لتأسيس علم اللغة كعلم : فإننا لا يمكن أن نتصور نشأة علم يكون متشككا فى طبيعة مادته . متردداً فى نوعية المجال الذى تنتمى إليه . ولكن بالإضافة إلى السعى وراء مزيد من الدقة والصرامة فى البحث ، فإن القضية تتعلق هنا بالمكانة الخاصة التى تشغلها مجموعة الظواهر الإنسانية .

وهنا ـ أيضا ـ لم يلاحظ أحد الجدة التى تتميز بها خطوات سوسير فى البحث العلمى ، فإن القضية ليست أن نقرر ما إذا كان علم اللغة أقرب إلى علم النفس أو إلى علم الاجتماع ، ولا أن نفسح له مكانا بين الفروع المعرفية القائمة ، ولكن القضية يجب أن تطرح على مستوى

مغاير تماما ، ومن خلال مصطلحات جديدة كل الجدة ، تولد مفاهيمها الخاصة . إن علم اللغة ينتمي في الحقيقة إلى علم لم ينشأ بعد ، علم يتناول الأنظمة الأخرى المشابهة داخل مجموعة الظواهر الإنسانية . هذا العلم هو السيميولوجيا ويجب علينا أن نذكر الصفحة التي تصف هذه العلاقة وتحددها :

« إن اللغة نظام من العلامات تعبر عن أفكار . ومن هنا يمكن مقارنتها بالكتابة وبأبجدية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وبأشكال التحية والإشارات الحربية إلخ ... ولكنها أكثر أهمية من كل هذه الأنظمة .

ويمكن - إذن - أن نتصور نشأة علم يدرس حياة العلامات وسط الحياة الاجتماعية . وسوف يكون هذا العلم جزءا من علم النفس الاجتماعي ، وبالتالي من علم النفس العام ، وسنطلق على هذا العلم اسم السيميولوجيا (من الكلمة اليونانية Sèmeion أي العلامة) . وسوف يكشف لنا هذا العلم كينونة العلامات ، وأيضا القوانين التي تحكمها ، ولكن لما كان هذا العلم لم ينشأ بعد ، فإننا لا نستطيع أن نتنبأ بكيفية تطوره . ولكن لابد من ظهوره ، فمكانه محدد سلفا ، وليس علم اللغة سوى جزء من هذا العلم العام ، وستطبق القوانين التي تكشفها السيميولوجيا - بلا جدال - على علم اللغة ، وبالتالي سيجد علم اللغة نفسه مرتبطا بمجال محدد المعالم في مجموع الظواهر الإنسانية .

ويقع على عاتق عالم النفس مهمة تحديد الموضع الصحيح الذي تحتله السيميولوجيا[١٢] . أما بالنسبة لعالم اللغة فمهمته تحديد الخصائص التي تجعل من علم اللغة نظاما خاصا وسط مجموع الظواهر السيميولوجية . وسنعالج هذه القضية في موضع لاحق . ولكن يجدر بنا هنا أن نلاحظ شيئا : إذا كنا نستطيع أن نخصص مكانا محددا لعلم اللغة بين العلوم . فهذا يرجع قبل كل شئ إلى إلحاقها بالسيميولوجيا »[١٣] ونرجئ التعليق الطويل الذي تستحقه هذه الصفحة إلى المناقشة التي سنقدمها فيما بعد . ونكتفي - هنا - بإبراز السمات الجوهرية للسيميولوجيا كما تصورها سوسير ، بل كما تلمسها قبل أن يتعرض لها في محاضراته بمدة طويلة[١٤] .

تظهر اللغة في شتى صورها في شكل ثنائي : فإذا كانت اللغة مؤسسة اجتماعية ، فإن الفرد هو الذي يستخدمها ويمارسها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، إذا كانت تظهر في شكل حديث يتميز بالاستمرارية فإنها تتكون من وحدات مستقلة ثابتة . هذا لأن اللغة - في الواقع - مستقلة عن العمليات السمعية - الصوتية التي تنتج الكلام ، فاللغة هي عبارة **« عن نظام من العلامات تستند أساسا وقبل كل شئ على الاتحاد بين المعنى والصورة الصوتية . ويتميز هذان الوجهان للعلامة (أي المعنى والصورة) بكونهما نفسيين »[١٥]** فمن أين إذن تستمد اللغة وحدتها ؟ وما المبدأ الذي يحكم توظيفها ؟ إنها تستمدهما من خاصيتها السيميوطيقية . ويمكن استخلاص طبيعتها من هذه الخاصية ، كما يمكن ربطها بمجموعة من الأنظمة تشاركها نفس الطبيعة .

ويعتبر سوسير - مخالفا في ذلك بيرس - أن العلامة مفهوم لغوي قبل كل شئ ، ولكنه يمكن أن يتسع ليشمل أنواعا مختلفة من الظواهر الإنسانية والاجتماعية . ويحدد سوسير - على هذا النحو - مجال العلامة . ولكن هذا المجال يحتوي ، بالإضافة إلى اللغة ، أنظمة مماثلة لنظام اللغة . ويذكر سوسير بعض هذه الأنظمة . والصفة المشتركة لهذه الأنظمة هي أنها أنظمة من **العلامات** غير أن اللغة هي **« أهم هذه الأنظمة »** ولكن ما وجه هذه الأهمية ؟ هل يرجع إلى أن اللغة تشغل حيزا أكبر في الحياة الاجتماعية من أي نظام آخر؟

وإذا كان فكر سوسير يتميز بالوضوح فيما يتعلق بعلاقة اللغة بأنظمة العلامات الأخرى فإنه أقل وضوحا بالنسبة للعلاقة التي تربط بين علم اللغة والسيميولوجيا ، وهي العلم الخاص بأنظمة العلامات . ففي رأي سوسير لابد لعلم اللغة أن يرتبط بالسيميولوجيا . وتدخل هذه - بدورها - في إطار علم النفس الاجتماعي ، وبالتالي علم النفس العام . بيد أن السيميولوجيا لم تتكون بعد كعلم ، ولابد من الانتظار حتى تنشأ وتتناول **« دراسة حياة العلامات في قلب الحياة الاجتماعية »** . وبذلك نستطيع أن نتعرف على ماهية العلامة وعلى طبيعة القوانين التي تحكمها . إن سوسير في الحقيقة يحيل تعريف العلامة إلى علم لم ينشأ بعد ، ولكنه يكتفي بتقديم أداة يستخدمها علم اللغة لتشكيل سيميولوجيته الخاصة . وهذه الأداة هي العلامة اللغوية : **« إننا نرى أن المشكلة اللغوية هي مشكلة سيميولوجية قبل كل شئ ... وتستمد كل أبحاثنا دلالتها من هذه الحقيقة الهامة »[١٦]** .

إن المبدأ الذي يربط بين علم اللغة والسيميولوجيا هو أن العلامة اللغوية **« اعتباطية »** . وهذا المبدأ هو أساس علم اللغة . ومن ثم نستطيع أن نقول بصورة عامة إن المادة الأساسية التي تتناولها السيميولوجيا هي **« مجموعة الأنظمة التي تقوم على اعتباطية العلامة »[١٧]** . ويترتب على ذلك أن اللغة تحتل مكان الصدارة بين أنظمة التعبير جملة .

« ويمكن القول ... إن العلامات التي تتميز بالاعتباطية المطلقة تحقق - أكثر من غيرها - العملية السيميولوجية ؛ ولهذا السبب فإن اللغة ، وهي أكثر الأنظمة التعبيرية تعقيدا وانتشارا ، هي أكثرها تمثيلا للعملية السيميولوجية . ومن هذا المنطلق يمكن أن تصبح اللغة النموذج العام لكل السيميولوجيات بالرغم من أنها نظام خاص فحسب »[١٨] .

ويظهر مما سبق أن سوسير في حين أنه يعرب بوضوح عن ضرورة ارتباط علم اللغة بالسيميولوجيا فإنه يمتنع عن تعريف طبيعة العلاقة التي تربط بينهما ، فيما عدا مبدأ اعتباطية العلامة الذي يهيمن على مجموع الأنظمة التعبيرية وفي مقدمتها اللغة . إن السيميولوجيا - كعلم للعلامات - عند سوسير لا تتعدى كونها رؤية مستقبلية ، تتشكل في خطوطها العريضة على شاكلة علم اللغة .

أما عن الأنظمة التي تنتمي إلى السيميولوجيا - بالإضافة إلى اللغة - فإن سوسير يقتصر على ذكرها ، دون أن يحاول حصرها في قائمة - إذ لا يقدم أي معيار يصلح لتحديد طبيعتها : **« الكتابة ، أبجدية الصم والبكم ، الطقوس الرمزية ، أشكال التحية ، الإشارات الحربية إلخ ... »[١٩]** وفي موضع آخر من محاضراته - في علم اللغة - يقترح إمكانية اعتبار الطقوس والعادات إلخ ... علامات .[٢٠]

وإذا أردنا أن نلتقط خيط هذه المشكلة الهامة حيث تركها سوسير، فلابد من مجهود أوليّ فى التصنيف، وهذا من أجل تطوير التحليل وإرساء أسس السيميولوجيا.

إننا لن نتعرض هنا لمشكلة الكتابة، حيث اننا نعتقد أن هذه القضية الهامة تتطلب معالجة منفردة. هل الطقوس الرمزية وأشكال التحية أنظمة مستقلة؟ هل يمكن أن نضعها فى نفس مرتبة اللغة؟ إن العلاقة السيميولوجية لا تقوم فى الطقوس الرمزية وأشكال التحية إلا من خلال القول: «**الأسطورة**» التى تصاحب الطقوس و«**البروتوكول**» الذى ينظم أشكال التحية. فهذه العلامات تفترض وجود اللغة التى تنتجها وتفسرها لكى تتولد وتتشكل فى صورة نظام. فهذه العلامات هى من نوعية مختلفة عن اللغة، وتخضع لنظام هرمى عام لابد من تحديده. ويمكن أن نستشف مما سبق أن مادة السيميولوجيا هى **العلاقات** بين الأنظمة المختلفة بالإضافة إلى العلامات التى تكون هذه الأنظمة.

وقد آن لنا أن نترك العموميات وأن نتعرض للمشكلة الجوهرية التى تتمركز حولها السيميولوجيا، وهى موضع اللغة بين أنظمة العلامات. ويجدر بنا - بدءًا - أن نوضح مفهوم العلامة وقيمتها داخل المجموعات التى يمكن دراستها فيها، إذ إننا لا نستطيع أن نرسى قواعد النظرية دون القيام بذلك. ونعتقد أن هذه الدراسة لابد أن تبدأ بالأنظمة غير اللغوية.

- ٢ -

إن دور العلامة هو التمثيل، أن تحل محل شئ آخر، أن تستدعى هذا الشئ باعتبارها بديلا عنه. ويفترض أى تعريف أكثر دقة - يتكفل بالتفرقة بين الأنواع المختلفة من العلامات - تأملا حول مبدأ علم للعلامات، حول السيميولوجيا، ويفترض - أيضا - سعيا نحو تشكيل هذا العلم. وإذا - تأملنا سلوكنا أو ملابسات الحياة الفكرية والاجتماعية أو ملابسات العلاقات، أو ملابسات الإنتاج والتبادل، لاحظنا أننا نستخدم مجموعة من نظم العلامات معاً، فى كل لحظة من لحظات حياتنا: إننا نستخدم أولا - وقبل كل شئ - علامات اللغة، وهى التى يبدأ اكتسابها مع نشوء الحياة الواعية، ثم علامات الكتابة، ثم علامات التحية والتعرف على الآخر والتجمع بكل أشكالها وتسلسلها الهرمى؛ ثم العلامات التى تنظم المرور؛ والعلامات الخارجية التى تشير إلى الظروف الاجتماعية؛ و«**العلامات النقدية**» التى تشير إلى القيم والمؤشرات فى الحياة الاقتصادية؛ وعلامات العبادات والشعائر والعقائد؛ وعلامات الفن بكل أشكالها وتنوعها (الموسيق، والتصوير والفنون التشكيلية)، ويبدو - بجلاء، وبدون تجاوز لحدود الملاحظة الإمبريقية - أن حياتنا بأسرها محصورة داخل شبكات من العلامات تشكلنا إلى الدرجة التى تجعل إلغاء علامة يُخلّ بتوازن المجتمع والفرد معا. ويبدو كأن هذه العلامات تتوالد وتتكاثر بفضل ضرورة داخلية تتجاوب - فيما يظهر - مع ضرورة نابعة من نظامنا العقلى. ومن ثم فما هو المبدأ - والأمور على هذا النحو - الذى يجب علينا أن ندخله على كل هذه التشكيلات التى تتكون بها العلامات لكى ننظمها ونحدد المجموعات المختلفة؟

إن السمة التى تتسم بها شتى الأنظمة، والتى تمثل المعيار الذى يجعلها تدخل فى نطاق السيميولوجيا، هى قدرتها على الدلالة أو مدلوليتها Signifiance، وتكونها من وحدات دلالية أو «**علامات**». ويجب علينا - الآن - أن نصنف خصائص الأنظمة المميزة.

إن النظام السيميولوجى يتميز بالخصائص التالية:

١ - كيفية تأدية الوظيفة.
٢ - مجال صلاحيته.
٣ - طبيعة علاماته وعددها.
٤ - نوعية توظيفه.

أما كيفية التأدية للوظيفة فإنها الطريقة التى يعمل بها النظام، ولا سيما الحاسة (البصر، السمع، إلخ ...) التى يخاطبها، وأما مجال الصلاحية فإنه المجال الذى يفرض النظام نفسه فيه بحيث يتحتم التعرف عليه واتباعه، وأما طبيعة العلامات وعددها فهى رهن الشروط السالفة الذكر. وفيما يتعلق بنوعية التوظيف فإن العلاقة هى التى تربط بين العلامات وتمنح كل علامة وظيفة فارقة Distinctive أو مستقلة عن الأخريات.

فلنختبر هذا التعريف على نظام من الأنظمة التى تنتمى إلى المستوى الأول، وليكن نظام إشارات المرور الضوئية المستخدمة فى الطرق:

- إن كيفية تأدية الوظيفة هى كيفية بصرية، تكون - عامة - فى النهار وفى الهواء الطلق.
- إن مجال الصلاحية هو تنقل العربات على الطريق.
- وتتمثل علامات النظام فى التعارض اللونى بين الأخضر والأحمر أو فى بعض الأحيان تصاحب هذا التعارض مرحلة وسيطة يشير إليها اللون الأصفر وتمثل مرحلة (انتقال)، ولذا نجد أن هذا النظام نظام ثنائى.
- إن نوعية التوظيف هى علاقة تعاقب (ولا تكون أبدا علاقة تزامن) بين الأخضر والأحمر. وتعنى: طريق مفتوح / طريق مغلق، أو فى صيغة الأمر أو إصدار التعليمات: أعبر / قف.

وقد يتجاوز النظام حدود مجال الصلاحية الذى يعمل فيه، أو يتحول من مجاله الأصلى إلى مجال آخر، فيطبَّق على الملاحة النهرية، أو يستخدم فى تنظيم مرور السفن فى القنوات ومداخل الموانى، أو تنظيم حركة الطائرات فى ممرات المطارات إلخ.. غير أن هذا التجاوز أو التحويل لا يتم إلا فى مجال الصلاحية، دون أن يمتد إلى الشروط الثلاثة الأخرى التى تبقى ثابتة فيظل التعارض اللونى قائما كما هو، وحاملا لنفس الدلالة. ولا ينبغى تغيير طبيعة العلامة سوى لضرورة تمليها ظروف طارئة إلى أن تزول هذه الظروف[٢١].

إن الخصائص التى يجمعها التعريف السابق تندرج تحت مجموعتين، فالمجموعة الأولى الخاصة بكيفية التأدية ومجال الصلاحية تشكل الشروط الخارجية الإمبريقية للنظام. أما المجموعة الثانية التى

تشمل الخاصيتين الأخريين المتعلقتين بالعلامات ونوعية التوظيف ؛ فإنها تشكل الشروط الداخلية للنظام أو شروطه السيميوطيقية . وتقبل الخاصيتان الأوليان بعض التنويعات أو التكييفات ، أما الخاصيتان الثانيتان فتظلان ثابتتين . ويمثل هذا الشكل البنائى النسق المقنن للنظام الثنائى الذى نجده فى أساليب الانتخاب التى تجرى مثلا من خلال استخدام كرات بيضاء أو سوداء ، أو من خلال الوقوف أو الجلوس الخ .. وفى كل المناسبات التى يمكن أن تكون البدائل فيها معبرا عنها (ولكنها ليست كذلك) من خلال ألفاظ لغوية مثل : نعم / لا .

ونستطيع الآن أن نستخلص مما سبق مبدأين يحكمان العلاقات بين الأنظمة السيميولوجية المختلفة .

ويمكن أن نطلق على المبدأ الأول مصطلح مبدأ **عدم الترادف** Non-redonance بين الأنظمة ولا يوجد ترادف بين الأنظمة السيميولوجية ، إذ لا نستطيع أن نقول نفس الشئ بالكلمة أو بالنغم ، إذ تختلف الكلمة عن النغم من حيث هما نظامان يقومان على أسس مختلفة .

وقد يعنى ذلك أنه لا يمكن أن يحل واحد من نظامين سيميوطيقيين من نمطين مختلفين محل الآخر ، ففى الحالة المذكورة تتميز الكلمة والنغم بسمة مشتركة ، هى إنتاج الصوت ومخاطبة السمع — غير أن هذا التشابه بين النظامين لا يلغى الاختلاف الذى يظهر بين طبيعة وحداتهما الخاصة ونوعية أدائهما لوظيفتهما — كما سنوضح فيما بعد . ويرجع سبب عدم وجود الترادف فى عالم العلامات إلى استحالة تبديل نظام بآخر ، يختلف عنه فى أسسه ، لأن الإنسان لا يملك عددا من الأنظمة المختلفة تحمل نفس العلاقة الدلالية .

ونستطيع فى مقابل ذلك — أن نبدّل بين الأبجدية الكتابية وأبجدية بريل Braille أو مورس Morse أو التى يستخدمها الصم والبكم ، ويرجع ذلك إلى أنها جميعا انظمة ذات أساس مشترك مبنى على مبدأ الأبجدية العام : إذ الحرف الواحد يساوى صوتا واحداً .

ونستطيع أن نستخلص مبدأ ثانيا ، ينتج عن المبدأ الأول ويكمله : ومؤدى هذا المبدأ الثانى أنه إذا انتمت علامة واحدة إلى نظامين مختلفين فإن هذا لا يعنى أن هناك ترادفا بين النظامين أو تكراراً ، فالكيان المادى للعلامة ليس له قيمة ، إذ تكمن القيمة فى الاختلاف الوظيفى للعلامة . إن اللون الأحمر الذى ينتمى إلى نظام إشارات المرور لا يمت بصلة إلى اللون الأحمر الذى يظهر فى العلم الفرنسى الثلاثى الألوان : أزرق — أبيض — أحمر ، ولا يمت اللون الأبيض الذى يظهر فى هذا العلم بصلة إلى اللون الأبيض الذى يشير إلى الحداد فى الصين . إذ تعرف قيمة العلامة فقط ، من خلال إدخالها فى النظام الذى تنتمى إليه . ومن هنا لا توجد علامة يمكن أن تعبر حدود الأنظمة المختلفة .

هل لنا أن نستنتج مما سبق — إذن — أن الأنظمة تمثل عوالم مغلقة لا تقوم بينها سوى علاقة تعايش عرضية ؟

إن علينا أن ندخل — عند هذه النقطة من النقاش — إلى ضرورة منهجية جديدة : إذ يجب أن تكون العلاقة التى تربط بين الأنظمة السيميوطيقية ذات طبيعة سيميوطيقية ، وتحدد هذه العلاقة فاعلية الوسط الثقافى المشترك الذى ينتج ويغذّى — بطرق متغايرة — جميع الأنظمة الخاصة به . إلا أن هذه العلاقة علاقة خارجية ولا يستتبعها — بالضرورة — قيام تلاحم أو ترابط بين الأنظمة المختلفة . وهناك شرط آخر : إذ يجب علينا أن نحدد ما إذا كان من الممكن أن يفسر نظام سيميوطيقى نفسه بنفسه ، أو ما إذا كان يستمد تفسيره من نظام سيميوطيقى آخر ، ومن ثم يمكن أن ننظر إلى العلاقة التى تقوم بين الأنظمة على أنها علاقة بين **نظام مفسِّر** و **نظام مفسَّر** . وهذه العلاقة هى التى نقترحها — على المستوى الأعلى — بين علامات اللغة وعلامات المجتمع : إننا نستطيع أن نفسر علامات المجتمع من خلال علامات اللغة وليس العكس صحيحا . فاللغة — إذن — هى مفسِّر المجتمع[22] . أما على المستوى الأدنى فإننا نستطيع أن نعتبر الأبجدية الكتابية مفسِّرا لأبجدية بريل Braille أو مورس Morse . وهذا بفضل اتساع مجال صلاحيتها رغم أنّ كلا من الأبجديات الثلاثة قابل لأن يحل محل الآخر .

ونستطيع أن نستنتج مما سبق أن الأنظمة الفرعية داخل المجتمع تفسَّر أيضا من خلال اللغة . وهذا يبدو منطقيا حيث أن المجتمع يحتويها ، كما أن المجتمع نفسه يُفسَّر من خلال اللغة . ونلاحظ أن هذه العلاقة غير قابلة للارتداد ، والسبب فى ذلك هو أننا لا نستطيع أن نعكس عملية التفسير هذه فاللغة تحتل مكانة خاصة فى عالم أنظمة العلامات . ولذا فإذا اتفقنا على الإشارة إلى مجموعة الأنظمة بحرف «ن» (أى «نظام») وإلى اللغة بحرف «ل» سوف يكون التحويل — دائما — فى اتجاه ن ← ل ولن يكون أبدا فى الاتجاه العكسى . وهذا المبدأ مبدأ عام يحكم الترتيب الهرمى الذى يمكن أن يستخدم فى تصنيف الأنظمة السيميوطيقية وفى بناء نظرية سيميولوجية .

ويمكننا — لكى نبرز الاختلافات بين الرتب المختلفة داخل مجموعة الأنظمة السيميوطيقية — أن نتناول من نفس الزاوية نظاما مختلفا تماما عن الأنظمة التى تحدثنا عنها ، وهو النظام الموسيقى . وستظهر لنا الاختلافات ، قبل كل شئ ، فى طبيعة العلامات وفى نوعية توظيفها .

إن الموسيقى مكونة من الأصوات التى تكتسب طبيعة موسيقية عندما تسمى تسميات خاصة ، وتصنف تصنيفا خاصا كدرجات موسيقية أو «نوت» Notes إننا لا نجد فى الموسيقى وحدات يمكن مقارنتها — مقارنة تطابق — بالعلامات اللغوية . وتنظم هذه الدرجات الموسيقية داخل إطار تنظيمى هو السلم الموسيقى ، إذ تدخل هذه الدرجات إطار السلم فى شكل وحدات مميزة ينفصل بعضها عن الآخر ولكن يتحدد عددها بالإطار . وتتسم كل وحدة أو درجة بعدد ثابت من الذبذبات تستغرق وقتا محددا . إن السلالم الموسيقية تحتوى على نفس عدد الدرجات الموسيقية فى طبقات مختلفة يحددها عدد الذبذبات فى متواليات هندسية ، بينما تظل المسافات ثابتة . وقد تُنتج الأصوات الموسيقية مونوفونيا (أى مفردة) أو بوليفونيا (مجتمعة) ؛ ولذلك فهى توظف على حدة أو متآلفة ، مهما اتسعت المسافات التى تفصل بينها فى سلالمها المختلفة . ولا حصر لعدد الأصوات التى يمكن لمجموعة من الآلات ، تعزف معا وفى وقت واحد ، أن تنتجها . بل لا يخضع ترتيبها

أو معدل ترددها الصوتى أو نطاق تنسيقها لتحديد أو قيد. فالملحن ينظم الأصوات فى «**قوله**» الموسيقى بحرية مطلقة، لأن هذا القول لا يخضع لعرف «**نحوى**» معين بل يتبع تركيبه الخاص.

إننا نرى ـ إذن ـ ما الذى يجعل النظام الموسيقى يدرج بين الأنظمةالسميوطيقية، وما الذى يجعله يختلف عنها، فالنظام الموسيقى يُنسق منطلقاً من المجموعة التى يمثلها السلم الموسيقى، وهذا بدوره يتكون من الدرجات الموسيقية التى لا تكتسب قيمة تعارضية سوى داخل السلم نفسه. وليس هذا السلم سوى مجموعة تتكرر على طبقات مختلفة، يحددها النغم Tone الذى يشير إليه المفتاح الموسيقى.

والدرجة الموسيقية هى ـ إذن ـ الوحدة الأساسية فى النظام الموسيقى. هذه الوحدة هى وحدة متميزة وتعارضية، ولكنها لا تكتسب قيمتها سوى بدخولها فى السلم الموسيقى الذى يحدد جدول الدرجات الموسيقية. هل هذه الوحدة وحدة سميوطيقية؟ قد تكون كذلك داخل نطاقها الخاص، إذ إنها تحدد التعارضات فى هذا النطاق، ولكنها لا تمت بصلة لسميوطيقا العلامة اللغوية، فإننا لا نستطيع أن نحولها إلى وحدات لغوية، على أى مستوى من المستويات.

وقد نلاحظ تشابها آخر بين الموسيقى واللغة، غير أنه يحمل فى طياته اختلافا عميقا. إن الموسيقى نظام يعمل على محورين. محور التزامن ومحور التتابع، وقد يرد إلى الذهن أن ثمة تقابلا بين هذين المحورين والمحورين اللذين تعمل عليهما اللغة، وهما محور الاستدعاء Paradigmatique ومحور السياق Syntagmatique

غير أن محور التزامن فى الموسيقى يتنافى مع مبدأ الاستدعاء فى اللغة لهذا المبدأ الأخير هو ـ فى الواقع ـ مبدأ الاختيار الذى يستبعد التزامن داخل المقطع اللغوى الواحد، ومن جانب آخر لا يطابق محور التتابع فى الموسيقى محور السياق فى اللغة، حيث أن التتابع فى الموسيقى يتلاءم مع تزامن الأصوات، وهذا التزامن لا يخضع لأى قيود سواء كان ذلك فى التآلف بين الأصوات المفردة أو مجموعات الأصوات أو فى استبعاد هذه الأصوات. ولذلك فإن التكوين الموسيقى الذى ينتج عن التوافق Harmonie والطباق Contrepoint

لا يتوفر للغة، حيث يخضع محور الاستدعاء ومحور السياق ـ على السواء ـ لأحكام محددة، مثل قواعد التوافق والاختيار والتواتر الخ.. وتترتب ـ على هذه القواعد ـ ظواهر التردد والتوقع الإحصائى من جانب، وإمكانية إنتاج أقوال تفهم من جانب آخر. ولا يتعلق الفرق بين اللغة والموسيقى على نظام موسيقى معين، أو على السلم الموسيقى المختار؛ فيدخل فيه نظام الاثنى عشر صوتا المتسلسل Dodécaphonie كما يدخل فيه النظام الدياتونى Diatonie

ونستطيع القول إجمالا: إننا إذا اعتبرنا الموسيقى «لغة» فإنها لغة تملك «تركيبا»، ولكنها لا تملك سميوطيقا. ويوضح هذا التباين بين اللغة والموسيقى سمة إيجابية وضرورية تتميز بها سميولوجية اللغة وهى سمة يجب أن نأخذها فى الاعتبار.

ولننتقل ـ الآن ـ إلى مجال آخر، هو مجال الفنون التى يطلق عليها «الفنون التشكيلية»، وهو مجال لا حد له، غير أننا نكتفى ـ هنا ـ بالبحث عما إذا كانت هناك بعض التشابهات أو الاختلافات التى تلقى ضوءاً على سميولوجيا اللغة. ونصطدم ـ فى هذا المجال ـ ومنذ الوهلة الأولى ـ بصعوبة مبدئية: هل توجد سمة أساسية مشتركة بين كل هذه الفنون سوى مفهوم مبهم هو مفهوم «التشكيل» Le Plastique هل توجد وحدة شكلية يمكن تحديدها على أنها الوحدة التى تدخل فى تكوين كل هذه الفنون أو فى أحدها؟ ولكن ما وحدة التصوير والرسم؟ هل هى الشكل أم الخط أم اللون؟ وهل هذا السؤال ـ إذا طرحناه بهذا الشكل ـ له معنى؟

وقد آن لنا أن نضع الشروط التى تمثل الحد الأدنى للمقارنة بين أنظمة من رتب مختلفة. إذ لابد لكل نظام سميوطيقى ـ يقوم على العلامات أن يحتوى:

١ ـ قائمة محددة من العلامات

٢ ـ قواعد للتنسيق تتحكم فى تشكيل هذه العلامات

٣ ـ بغض النظر عن طبيعة المقولات التى ينتجها النظام وعدد هذه المقولات.

وإذا نظرنا إلى الفنون التشكيلية فى جملتها فلا يبدو أن أياً منها يحاكى هذا النموذج. وقد نجد ـ على الأكثر ـ أن عملا ما، لفنان معين، يقترب من هذا النموذج، وفى هذه الحالة لا يتعلق الأمر بشروط عامة وثابتة، ولكن يظل فى حدود خاصية فردية، مما يخرجنا من نطاق اللغة كنظام عام.

ويظهر ـ مما سبق ـ أن مفهوم «**الوحدة**» يحتل مكانة الصدارة فى الإشكالية التى نحن بصددها[٢٣]، وأن أية نظرية جادة لن تتشكل ـ إذا أسقطت أو تفادت قضية الوحدة. إذ إن كل نظام دال لابد من أن يُعرَف من الطريقة التى يُنتج بها الدلالة، ومثل هذا النظام يجب أن يحدد الوحدات التى يستخدمها، لكى ينتج «**المعنى**»، وأن يحدد أيضا نوعية «**المعنى**» المنتج.

وهكذا نواجه سؤالين :

١ ـ هل يمكن اختزال جميع الأنظمة السميوطيقية فى وحدات ؟

٢ ـ هل هذه الوحدات ـ داخل الأنظمة التى توجد فيها ـ تمثل علامات ؟

ولابد من اعتبار الوحدة والعلامة خاصيتين متميزتين فبينما تكون العلامة بالضرورة وحدة فقد لا تكون الوحدة علامة . ونحن واثقون ـ على أقل تقدير ـ من هذا القول : **إن اللغة مكونة من وحدات وهذه الوحدات هى علامات . ولكن ماذا عن الأنظمة السميوطيقية الأخرى ؟**

ونتناول بادئ ذى بدء الطريقة التى تؤدى بها الأنظمة المسماة جمالية ـ أنظمة الصوت والصورة ـ وظيفتها ، عامدين أن نترك ـ جانبا ـ وظيفتها الجمالية . إن «**اللغة**» الموسيقية تتكون من تآلفات ومتتاليات من الأصوات ، مترابطة بطرق مختلفة ، إن الوحدة الأولية فى هذا النظام هى الصوت ، والصوت ليس علامة ؛ فيمكن التعرف على كل صوت داخل بنية السلم الموسيقى الذى ينتمى إليه ، ولكن ما من صوت من هذه الأصوات يحمل دلالة . ونرى فى هذا مثالا نمطيا لوحدات ليست علامات ، فإنها لا تشير إلى شئ إذ إنها مجرد درجات فى سلم حُدِّد مداه اعتباطيا . ونستطيع أن نقول ـ هنا ـ إننا عثرنا على مبدأ للتمييز : **إن الأنظمة المبنية على وحدات تنقسم إلى أنظمة ذات وحدات دالة ، وأنظمة ذات وحدات غير دالة ، ونضع اللغة فى النوع الأول ، أما الموسيقى فتنتمى إلى النوع الثانى**[٢٤] .

وتطرح قضية وجود الوحدات نفسها للمناقشة بالنسبة للفنون التشكيلية (**التصوير والرسم والنحت**) ذات الصور الثابتة أو المتحركة .

ما طبيعة هذه الوحدات ؟ إذا تعلق الأمر بالألوان فعلينا أن نعترف أنها تشكل سلما يمكن تخصيص درجاته الأساسية من خلال تسميتها . إنها تُعيَّن ويشار إليها ، ولكنها لا تشير إلى شئ خارجها ، ولا توحى بشئ ثابت معروف أو محدد . إذ يختار الفنان الألوان ويخلطها ويصوغها كيف شاء على اللوحة ، ولا تتشكل هذه الألوان تشكيلا نهائيا سوى داخل التكوين نفسه . وتكتسب «**دلالة**» ، من حيث التقنية ، من خلال الاختيار والتنسيق . إن الفنان يخلق سميوطيقا خاصة به ويؤسس تعارضاته فى خطوط يضفى عليها الدلالة من خلال تنسيقها . ولا يتسلم الفنان قائمة من العلامات جاهزة مسبقا ، أو معترفاً بها ، ولا يقوم بتأسيس قائمة . فاللون ـ هذه المادة الخام ـ يشتمل على تشكيلة لا نهائية من الفوارق الدقيقة المتدرجة غير أنها لا تجد مقابلا بين «**العلامات**» اللغوية .

أما بالنسبة للفنون التشكيلية فإنها تنتمى إلى مستوى آخر هو مستوى التمثيل ، حيث يتآلف الخط واللون والحركة ، وتدخل فى مجموعات تحكمها ضرورات خاصة . إن هذه الأنظمة أنظمة متميزة ، ذات تعقيدات جمة ، لا تتحدد وحداتها إلا بتطور سميولوجيا لاتزال فى مرحلة التكوين . ويجب أن نكتشف العلاقات الدالة فى «**اللغة الفنية**» داخل العمل الفنى نفسه . فالفن ليس سوى عمل معين يبث فيه الفنان بمحض حديثه تعارضات وقيما ، يتحكم فيها تحكما مطلقا ، دون أن ينتظر «إجابة» أو يحاول أن يلغى تناقضات . فالشئ الوحيد الذى يقع على عاتقه هو التعبير عن رؤية تخضع لمعايير ـ واعية أو غير واعية ـ يجسدها العمل ، ويصبح ـ فى جملته ـ شاهدا عليها .

ونستطيع أن نفرق بين الأنظمة التى يطبع الكاتب الدلالة عليها ، والأنظمة التى تعبر فيها ـ عن الدلالة ـ الوحدات الأولية منفردة بمعزل عن العلاقات التى يمكن أن تدخل فيها . وتُستخلص الدلالة فى الأنظمة الأولى من العلاقات التى تنظم عالما مغلقا ، أما فى الأنظمة الثانية فإنها ملازمة للعلامات نفسها ، فالدلالة فى الفن لا تحيل أبدا إلى عُرف ، يستقبله أطراف الحوار المعنية بطريقة مماثلة[٢٥] . ويتحتم الكشف ـ فى كل مرة ـ عن عناصر هذه الدلالة ، إذ لا نهاية لها من حيث العدد كما أنها ذات طبيعة تلقائية . ولذلك فلابد من إعادة اكتشافها فى كل عمل على حدة ومن ثم فإنها لا تصلح لكى تثبت فى منظومة . أما الدلالة فى اللغة فإنها على عكس ذلك تماما ، **فهى** الدلالة المحض التى تؤسس إمكان التبادل والاتصال . وبناء على ذلك فإنها تشكل إمكان قيام الحضارة نفسها .

ومع ذلك فإن المقارنة بين أداء مؤلف لموسيقى وإنتاج آخر لقول لغوى تظل مقارنة ممكنة : من خلال استخدام بعض الاستعارات ، فيصحّ الكلام عن «**قول**» موسيقى ، يقسَّم إلى «**جمل**» مستقلة تفصلها «**فواصل**» أو «**وقفات**» وتميز هذه الأقوال «**موتيفات**» يمكن التعرف عليها . وقد نبحث فى الفنون التشكيلية عن مبادئ عامة «**للصرف**» أو «**التركيب النحوى**»[٢٦] ولكن شيئا يفرض نفسه بكل تأكيد ، وهو أن سميولوجيا اللون أو الصوت أو الشكل ، لا يعبر عنها من خلال اللون أو الصوت أو الشكل إذ لابد لكل نظام غير لغوى من أن يوصف بواسطة اللغة ، فلا يمكن أن يوجد إلا من خلال سميولوجيا اللغة ، وداخل هذه السميولوجيا .

ولا يغير من الوضع أن تكون اللغة ـ هنا ـ أداة ، وليست موضوعا للتحليل ، فهذا الوضع هو الذى يحكم جميع العلاقات السميوطيقية ؛ فاللغة هى المفسِّر بالنسبة لكل الأنظمة الأخرى ، سواء كانت لغوية أو غير لغوية .

ونود ـ هنا ـ أن نوضح طبيعة العلاقات بين الأنظمة السميوطيقية وإمكانياتها ، ونقدم ثلاثة أنواع من العلاقات .

أولا : يمكن أن يولِّد نظام نظاما آخر ، فتولِّد اللغةُ العادية تَقعّد الاستنباط فى المنطق والرياضة ، وتولِّد الكتابة العادية كتابة بريل Braille . وتصلح هذه **العلاقة التوليدية** Relation D'engendrement بين نظامين متغايرين ومتعاصرين ، لها طبيعة مشتركة ، فيبنى النظام الثانى انطلاقا من النظام الأول لتأدية وظيفة معينة . ويجب أن نفرق بدقة بين العلاقة التوليدية ، والعلاقة الاشتقاقية التى تفترض وجود تطور وتغير تاريخى . فالذى يربط بين الكتابة الهيروغليفية والكتابة الديموطيقية هو علاقة الاشتقاق وليس علاقة التوليد . ويعطينا تاريخ تطور الكتابة نماذج كثيرة لنمط علاقة الاشتقاق هذه .

ثانيا : النمط الثانى هو علاقة التماثل Relation d'Homologie التى تؤسس علاقة متبادلة بين أجزاء لنظامين سميوطيقيين . وعلى عكس النظام الأول ، لا تُستقرأ هذه العلاقة من النظام نفسه ، ولكنها تُسقط عليه بفضل بعض الصلات التى تكتشف أو تقام بين نظامين مختلفين . وتختلف طبيعة التماثل ، فقد تكون حدسية أو استدلالية . فى الجوهر أو فى البنية ، ذهنية أو شعرية وعندما يقول بودلير : « **إن الروائح والألوان والأصوات تتجاوب** » ، فإن هذه التقابلات التى تُقام بين الروائح والألوان والأصوات لا تخص سوى بودلير نفسه ، إذ إنها تشكل عالمه الشعرى ، وتنظم الصور التى تعكس هذا العالم . أما التماثل الذى يقيمه بانفسكى Panovsky بين العمارة القوطية والفكر المدرسى [٢٧] ، فإنه أكثر ذهنية من هذا الذى يقيمه بودلير . ويلاحظ ـ كذلك ـ التماثل بين الكتابة والحركات الشعائرية فى الصين . وقد تكشف بنيتان نحويتان لتركيبين مختلفين تماثلات ذات نطاق محدود أو متسع . إن الأمر يترتب على الطريقة التى يُحدد بها النظامان ، والمعايير التى تستخدم ، والمجالات التى يجرى فيها البحث . وقد يستعمل التماثل بين نظامين ـ طبقا للحالة ـ إما كمبدأ للتوحيد بينهما ـ فلا يتجاوز استخدامه هنا دورا وظيفيا ـ وإما لخلق نوع جديد من القيم السميوطيقية . ولا يحدد شئ صلاحية هذه العلاقة مسبقا ولا يحد تشعبها شئ .

ثالثا : والنمط الثالث من العلاقات بين الأنظمة السميوطيقية هو نمط علاقة التفسير Relation d'Intrprétance

ونطلق هذا الاسم على العلاقة التى نقيمها بين نظام مفسر ونظام مفسَّر . إن هذه العلاقة هى العلاقة المحورية بالنسبة للغة وتفرق بين الأنظمة المختلفة ، فتقسمها إلى أنظمة يمكن تحليلها إلى مستويين : مستوى من الوحدات الدالة (**مثل المونيم فى اللغة**) ووحدات غير دالة (**مثل الفونيم فى اللغة أيضا**) وأنظمة لا تحلل إلا إلى مستوى واحد غير دال ، يكتسب دلالته من ربطه بنظام آخر . ومن هنا يمكن أن نقدم ـ ونبرر فى نفس الوقت ـ المبدأ القائل بأن اللغة هى المفسِّر الوحيد لجميع الأنظمة السميوطيقة ، إذ لا يملك نظام آخر « **لغة** » يستطيع أن يصف ويفسر نفسه من خلالها مطلقا من تقسياته السميوطيقية (**أى من خلال تحليله إلى علامات**) سوى « **اللغة** » التى تستطيع ، من حيث المبدأ ، أن تصنف وتفسر كل شئ بما فيه نفسها .

ونرى ـ هنا ـ كيف تختلف العلاقة السميولوجية عن أية علاقة أخرى ، خصوصا العلاقة الاجتماعية . وإذا طرحنا السؤال حول وضع اللغة بالنسبة للمجتمع ـ وهو موضوع أثار الكثير من المناقشات ـ وحول نوعية ارتباطها ، سنلاحظ أن عالم الاجتماع ، ومن يسلك مسلكه ينظر إلى المسألة من زاوية تباعد كل من المجتمع واللغة وأن اللغة تعمل داخل المجتمع الذى يحتويها ، ولذلك فإن عالم الاجتماع يقرر أن المجتمع هو الكل ، واللغة هى الجزء . بيد أن النظرة السميولوجية تعكس هذه العلاقة ، لأن اللغة ـ وحدها ـ هى التى تسمح بوجود المجتمع ؛ فاللغة هى التى تجمع البشر معا ، وهى أساس جميع العلاقات التى تؤسس بدورها المجتمع . **ويمكن القول ـ إذن ـ إن اللغة هى التى تحوى المجتمع** [٢٨] ، ولذلك فإن العلاقة السميوطيقية ، وهى علاقة التفسير ، تعكس العلاقة الاجتماعية ، وهى علاقة الاحتواء التى تُموِّضع العلاقات الخارجية ، وتشىء اللغة والمجتمع على السواء ، بينما تربط علاقة التفسير بينهما وفقا لقدرتهما على تشكيل نفسيهما فى نظام سيميوطيقى .

ويتحقق من هذا معيار أشرنا إليه آنفا عندما حاولنا تحديد طبيعة العلاقات بين أنظمة سيميوطيقية مختلفة ، ووجدنا أن هذه العلاقات لابد أن تكون ذات طبيعة سيميوطيقية . ونجد أن علاقة التفسير اللاعكسية التى تجعل اللغة تحتوى الأنظمة الأخرى تخضع لهذا المعيار .

تعطينا اللغة النموذج الوحيد لنظام يمكن وصفه بأنه سيميوطيقى فى بنيته الشكلية وفى تأديته لوظيفته . فاللغة :

١ ـ تتمثل فى القول الذى يحيل إلى موقف ما ، فإذا تكلمنا فإننا نتكلم دائما عن شئ ما .

٢ ـ تتكون ـ من حيث الشكل ـ من وحدات مستقلة تمثل كل واحدة منها علامة .

٣ ـ تُنتج اللغة وتُستقبل فى إطار قيم إشارية مشتركة بين أعضاء مجتمع واحد .

٤ ـ تمثل اللغة التحقق الوحيد للاتصال بين ذات المتكلم وذات المخاطب .

وتمثل اللغة ، لهذه الأسباب مجتمعة ، التنظيم السيميوطيقى الأمثل ، وتعطينا فكرة واضحة عن وظيفة العلامة ، كما تنفرد بتقديم صورتها المتكاملة . ويترتب على هذا أنها ـ هى دون غيرها ـ تستطيع أن تُضفى ـ وتضفى بالفعل ـ صفة الأنظمة الدالة على مجموعة أخرى من العلامات . وذلك بأن تعطيها شكلا خاصا ، هو شكل العلاقة التى تميز العلامة نفسها . وتقوم اللغة بدور خاص بالنسبة للأنظمة الأخرى . فهى تدخل هذه الأنظمة فى القالب السيميوطيقى ، إذ لا يمكن تصور هذا الدور خارج نطاق اللغة . فإن طبيعة اللغة الخاصة ، ووظيفتها التصويرية ، وقدرتها الدنياميكية ، ودورها فى حياة العلاقات تجعل منها النموذج السيميوطيقى الأعلى والبنية التى تشكل الأنظمة الأخرى التى تستق منها هذه الأنظمة سماتها ونوعية فاعليتها .

ولنا أن نتساءل من أين تستمد اللغة هذه الخاصية ؟ هل نستطيع أن نستشف السبب الذى يجعل من اللغة المفسِّر بالنسبة لكل نظام دال ؟

هل يحدث هذا لأن اللغة أكثر الأنظمة انتشارا . وأوسعها نطاقا ، وأعمها استخداما وأشملها كفاءة عمليًا ؟ إن الأمر على عكس ذلك تماما : إن هذه المكانة البارزة التى تحتلها فى مجال التوصيل العملى هى نتيجة وليست سببا لتميزها بين الأنظمة الدالة . ويرجع هذا التمييز إلى سبب سيميولوجى ، وينكشف لنا هذا السبب عندما ندرك أن اللغة تدل بطريقة خاصة تنفرد بها ، وتختص بها دون غيرها ، طريقة لا تتماثل فيها مع أى نظام آخر . **إن اللغة تنهض بدلالة مزدوجة . ولا نظير لهذا النموذج بين الأنظمة كلها . إن اللغة تجمع بين أسلوبين مختلفين للدلالة وسوف نطلق عليهما الأسلوب السيميوطيقى** Simiotique **من جانب والأسلوب السيمنطيقى** Semantique **من جانب آخر** [٢٩] .

أما السيميوطيق فإنه يشير إلى أسلوب الدلالة الخاص بالعلامة اللغوية ويجعل منها وحدة مستقلة. وقد نفصل – طبقا لمقتضيات التحليل – بين وجهى العلامة، وهما الدال والمدلول، بيد أن العلامة تظل – قبل كل شئ – وحدة لا يمكن تجزئتها من حيث الدلالة نفسها. إن السؤال الوحيد الذى تثيره العلامة لكى نتعرف عليها هو السؤال المتعلق بوجودها ولا يجاب عن هذا السؤال سوى بلا أو نعم. فالوحدات التالية هي علامات: **شجرة – أغنية – غسل – عصب – أصفر – على**، أما الوحدات التالية: « **جشرة** – « **أغينة** – « **سغل** – « **بعص** – « **أصرف** – « **لعى** »؛ فإنها ليست علامات، إذ إننا لا نستطيع أن نتعرف عليها. وبعد التعرف المبدئى على العلاقة يمكن مقارنتها بوحدات أخرى لتحديد معالمها، فقد تقام المقارنة بينها وبين وحدات أخرى قريبة منها فى البنية الصوتية مثلا، فيمكن أن نقارن بين الأزواج التالية: **صعد : سعد أو صعد : صعب أو صعد : صدع**. ويمكن أن تقام المقارنة من حيث الدلالة، فيمكن – مثلا – أن نقارن بين: **صعد : طلع أو صعد : تسلق أو صعد : ارتفع. وتتركز الدراسة السيموطيقية، بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، حول التعرّف على الوحدات المكونة للنظام، وعلى وصف صفاتها الخاصة، وعلى اكتشاف المعايير الدقيقة التى تفرق بين علامة وأخرى، وسوف تكتسب كل علامة، بفضل هذه الدراسة، دلالة أكثر خصوصية داخل كوكبة من العلامات أو وسط مجموعة العلامات العريضة. وإذا أخذنا العلامة فى ذاتها فإنها تغدو كيانا مستقلا تماما ومساويا لنفسه، فى تعارض مطلق مع العلامات الأخرى، فتصبح العلامة هى الأساس الدال للغة والمادة الخام التى لا غنى عنها للقول. وتكتسب العلامة صفة الوجود عندما يتعرف عليها مجموع أعضاء مجتمع ما كوحدة دالة توحى بنفس الشئ – جملةً – وتستدعى نفس التداعيات ونفس التعارضات. وهذا هو مجال السيميوطيقا ومعيارها.**

وتُدخلنا السيمنطيقا مجالا خاصا من الدلالة يولدها «**القول**» Discours. وتتعلق المشاكل التى تطرح نفسها – هنا – باللغة عندما تستخدم فى إنتاج الرسائل. ومن الجدير بالملاحظة أن الرسالة لا تختزل إلى متتالية من العلامات نقوم بالتعرف عليها، كل على حدة. ذلك لأن إضافة العلامات الواحدة إلى الأخرى لا تنتج الدلالة، بل، على عكس ذلك، إن المعنى («المقصد» « l'Intenté ») المدرك فى كليته هو الذى يتحقق وينقسم إلى «علامات» خاصة هى «**الكلمات**». ومن جانب آخر فإن السيمنطيقا تأخذ فى عين الاعتبار – بالضرورة – مجموع الحقائق التى تشير إليها العلامات بينما تظل السيميوطيقا – من حيث المبدأ – منفصلة ومستقلة تماما عن المشار إليه فى الواقع. **إن مجال السيمنطيقا يشاكل عالم القول والحديث.**

ومما لا شك فيه أننا نواجه هنا مجالين مختلفين من المفاهيم وعالمين ذهنيين متغايرين تماما. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال الاختلاف الذى يفصل بينهما بالنسبة لمعيار الصلاحية الذى يتطلبه كل من هذين العالمين. فى السيميوطيقا يجب **التعرف** على العلامة، أما فى السيمنطيقا فيجب **فهم** القول. ويحيل الفرق بين التعرف والفهم إلى ملكتين مختلفتين فى الذهن: ملكة إدراك التماثل بين السابق والحالى من جانب، وملكة إدراك معنى قول جديد من جانب آخر. وكثيرا ما تنفصم الملكتين فى بعض الأشكال المَرَضِيَّة لاستخدام اللغة.

إن اللغة هي النظام الوحيد الذى تتحقق دلالته على المستويين، بينما لا تملك الأنظمة الأخرى سوى بعد دلالى واحد: إما بعد سيميوطيق بلا سيمنطيقا (مثل التحيات) وإما بعد سيمنطيق بلا سيميوطيقا (مثل أشكال التعبير الفنى). وتكمن ميزة اللغة الكبرى فى أنها تشمل دلالة العلامات المفردة ودلالة القول فى آن واحد. ومن هنا تستمد قدرتها الفائقة على خلق مستوى ثان من القول، يمكن من صياغة كلام دال حول الدلالة نفسها. ونجد فى هذه الملكة الميتالغوية Metalinguistique أصل علاقة التفسير التى تجعل اللغة قادرة على استيعاب الأنظمة الأخرى.

لقد أرسى سوسير أسس السيميولوجيا اللغوية، عندما عَرَّف اللغة على أنها نظام من العلامات. ولكن يظهر لنا – الآن – أن العلامة بالرغم من أنها تطابق الوحدات اللغوية الدالة فهى لا تصلح لتكون المبدأ العام الذى يتحكم فى أداء اللغة وظيفتها القولية. وإذا كان سوسير لم يغفل الجملة تماما، إلا أنها كانت تمثل حجر عثرة بالنسبة إليه، ولذلك أحالها إلى مجال «الكلام» (٣٠) Le Parole ولكن هذه الإحالة لا تحل المشكلة. فالواقع أن عالم العلامة عالم مغلق إذ إن الانتقال من العلامة إلى الجملة مستحيل فإنه لا يتم من مجرد التركيب السياق أو غيره من التراكيب، فهناك فجوة تفصل بين العلامة والجملة. ولابد من التسليم بأن اللغة تشتمل على مجالين منفصلين، يتطلب كل منهما مجموعة من المفاهيم الخاصة. أما بالنسبة للمجال الذى أطلقنا عليه اسم السيميوطيقا فتصلح له نظرية سوسير كنقطة ينطلق منها البحث، ولكن لابد من النظر إلى مجال السيمنطيقا على أنه مجال منفصل تماما عنه. ولذلك يتطلب تناوله مجموعة جديدة من المفاهيم والتعريفات.

ومن الغريب أن مفهوم العلامة، وهو الأداة الذهنية التى خلقت السيميولوجيا، قد ساهم فى تجميدها وأوقعها فى مأزق، فمن جانب لم يكن من الممكن إبعاد مفهوم العلامة دون إلغاء أكثر خصائص اللغة أهمية، ومن جانب آخر لم يكن من الممكن بسط هذا المفهوم ليشمل القول فى جملته دون هدم تعريفها على أنها الوحدة الصغرى المكونة للغة.

وختاما فلابد من تجاوز المفهوم السوسيرى للعلامة كوحدة فريدة تترتب عليها بنية اللغة وأداؤها لوظيفتها معا . ويمكن أن يتم هذا التجاوز من خلال مسلكين :

أولا : فى التحليل داخل اللغة Intra - Linguistique نفسها من خلال إدخال بعد جديد للدلالة سميناه البعد السيمنطيقى ، يتعلق بالقول ويختلف عن دلالة الوحدة المفردة ، التى تنتمى إلى السيميوطيقا .

ثانيا : فى التحليل غير - اللغوى Translinguistique للنصوص والأعمال من خلال تطوير شرح دلالى ينطلق من سيمنطيقا القول .

وستكوّن هذه السيميولوجيا جيلا ثانيا ، فتستطيع بأدواتها ومنهجها أن تساهم فى تطوير فروع أخرى من السيميولوجيا العامة .

● هوامش

(١) SEMIOTICA, LA HAYE, MOUTON, I (1969), 1, pp. 1-12 et 2, pp. 127-135.

(٢) CAHIERS FERDINAND DE SAUSSURE, 15 (1957), p. 19

(٣) Charles S. Peirce (1839-1914); Ferdinand de Saussure (1857-1913)

(٤) «إن الجبر الكوفى الذى أقترحه بما فيه من مؤشرات ضمنية و ٤ و ١١ ، قابل لأن يوسع حتى يشمل كل شئ . ولذلك فإن نظام الرسم البيانى الوجودى يظل أفضل وإن لم يصل إلى درجة الاكتمال الأمثل» .

Peirce, Selected Writings, ed. Philip P. Wiener (Dover Publication, I 1958, p. 389).

(٥) «العلامة - كما تظهر فى حد ذاتها - هى أولاً : من طبيعة الظواهر عندما أطلق عليها Qualisign أى العلامة الصفة ، ثانيا : شئ أو حدث مفرد عندما أطلق عليها Sinsign أى العلامة المفردة (حيث أن مقطع Sin هو المقطع الأول من Semel بمعنى مرة واحدة و Simul بمعنى معا و Singular بمعنى مفرد إلخ ...) ثالثا : من طبيعة النمط العام عندما أسميها Legisign ويمكن التمثيل لهذه الأنواع من خلال لفظ «كلمة» . فإننا نقول إن «كتاب» «كلمة و«باب» «كلمة ونعتبر أن مثل هذا الاستخدام من قبيل الـ Legisign أو العلامة النمط ، أما إذا قلنا إن صفحة فى كتاب تحتوى على مائتين وخمسين كلمة من بينها ثلاث «كتاب» فإن الكلمة هنا Sinsign أو علامة مفردة وتكون هذه العلامة التى تجسد النمط هى «نسخة» Replica منه .

Peirce, op. cit., p. 39.

(٦) «... إن الكلمة أو العلامة التى يستخدمها الإنسان هى الإنسان نفسه . وبما أن كل فكرة هى علامة وبما أن الحياة ما هى إلا مجرى من الأفكار ، يصبح الإنسان - بالتالى - علامة . وبما أن كل فكرة هى علامة خارجية فإن هذا مؤداه أن الإنسان نفسه علامة خارجية» .

Peirce, op. cit., p. 71.

(٧) يولّد كل ما نهتم به فى نفوسنا إحساسا ، أيا كانت ضآلة هذا الإحساس . وهذا الإحساس هو علامة على الشئ ومحمول عليه .

Peirce op. cit. p. 67.

(٨) F. de Saussure, Cours de Lingistique Générale, (C. L. G.) 4e ed. p. 21.

(٩) C. L. G. p. 23.

(١٠) C. L. G. p. 24.

(١١) C. L. G. p. 25.

(١٢) هنا سوسير يحيل إلى Ad. Naville فى كتابه .

Classification des sciences; 2e ed. p. 104.

(١٣) C. L. G. p. 33-34.

(١٤) ظهر المفهوم والمصطلح فى ملاحظة مخطوطة لسوسير بتاريخ ١٨٩٤ ونشرها R. GODEL فى «المصادر المخطوطة» ص ٤٦ .

(١٥) C. L. G. p. 32.

(١٦) C. L. G. p. 34-35.

(١٧) C. L. G. p. 100.

(١٨) C. L. G. p. 101.

(١٩) C. L. G. 25.

(٢٠) C. L. G. p. 35.

(٢١) قد تفرض العوائق المادية (مثل الضباب) وسائل إضافية . فقد نستخدم إشارات ضوئية بدلا من الإشارات الصوتية ولكنها وسائل مؤقتة لا تغير الشروط الطبيعية .

(٢٢) نعالج هذه النقطة بالتفصيل فى موضع لاحق .

(٢٣) استبعدنا من هذه الصفحات عرض النظريات السابقة ، حيث أننا نعبر هنا عن وجهة نظرنا الخاصة وقد رأينا أنه ليس من المفيد ولا حتى من الممكن أن تثقل هذه الصفحات بمثل هذا العرض . والقارئ المطلع يتلمس بكل تأكيد الفرق الذى يفصل بيننا وبين لويس هلمسلف Louis Hjelmslev على وجه الخصوص حول النقاط الجوهرية فى النظرية السيميوطيقية . إنه يعرف ما يطلق عليه Semiotics على أنه «تصنيف هرمى يقبل أى من أجزائه المكونة تحليله إلى أبواب تعرّف من خلال علاقتها المتبادلة ، بحيث يمكن تحليل هذه الأبواب بدورها إلى مشتقات تعرّف من خلال قدرتها على أن يحل كل منها محل الأخرى» .

(Prolegomena to a Theory of language, trans. whitfield «1961», 106).

ولا يُقبل هذا التعريف سوى داخل إطار نظرية اللغة العامة التى وضعها هلمسلف والتى أطلق عليها Glossématique والواقع أن ملاحظات هلمسلف حول موضع اللغة داخل البنيات السميوطيقية وحول الحدود التى تفصل بين السميوطيقى واللاسميوطيقى تعكس موقفا غير محدد وغير ثابت . (op. cit, p. 109) . ونؤيد الاقتراح الذى يقدمه هلمسلف حول ضرورة جمع الفروع المعرفية السميوطيقية داخل نظرة شاملة عندما يقول : «إن النظر إلى الفروع المعرفية المختلفة من زاوية مشتركة يبدو لى ضروريا ومثمرا ، وهذا بالنسبة لدراسة الأدب والفن والموسيقى والتاريخ العام وأيضا المنطق والرياضة ، وذلك حتى تتركز دراسة هذه العلوم - انطلاقا من هذه النظرة الشاملة - حول طرح للمشاكل يحدد لغويا (op. cit. p. 108) . ولكننا نرى أن هذا البرنامج العريض سيظل حلما طالما لم نطور الأسس النظرية للمقارنة بين الأنظمة وهذا ما نحاول أن نحققه هنا . ويعد هلمسلف بضع سنوات القصر Ch. Morris على ملاحظة أن عددا

من اللغويين ـ الذين يذكر بعضهم ـ يعتبرون علم اللغة جزءاً من السميوطيقا ولكنه لا يحدد طبيعة هذه العلاقة .

(Charles Morris, Signification and Significance (1969), p. 62)

(٢٤) يؤكد رولان هروج Roland Harweg «أن المدخل النظرى لدراسة العلامة لا يتلاءم مع دراسة الموسيقى ، فهذا المنهج لا يستطيع أن يقدم للموسيقى سوى مقولات فى صيغة النق بالمعنى المنطقى لا التقييمى لهذا المصطلح . فهذا المنهج يقول (إن الموسيقى ليست نظاما دالاً وتمثيليا مثل اللغة)»

Roland Harweg, «Language and Music, an Immanent. and Sign Theoretic Approach» (Foundations of Language, 4 «1968», 270 sq.)

ولم يقدم هروج ما يؤيد هذا الرأى من إطار نظرى متكامل . إن المشكلة التى نحن بصدد مناقشتها هنا هى مشكلة صلاحية العلامة داخل الأنظمة السميوطيقية المختلفة .

(٢٥) Mieczyslaw Wallis, «Mediaeval Art as Language», Actes du 5e Congrès international d'esthètique (Amsterdam. 1964), 427 n., «La notion de champ sèmantique et son application à la théorie de l'Art». Sciences de l'art, numéro spécial (1966), 3 sq.

يقدم واليس Wallis, بعض الملاحظات المفيدة حول العلامات الأيقونية وبوجه خاص فى فنون القرون الوسطى : إنه يتلمس فيها «معجما» و «قواعد تركيب» . ومما لا شك فيه أننا نستطيع أن نتعرف فى نحت القرون الوسطى على قوائم من الأيقونات ، تماثل بعض المواضيع الدينية والتعاليم الدينية والأخلاقية . وهذه الأيقونات هى فى الحقيقة رسائل تقليدية تنتج داخل طوبولوجيا تقليدية أيضا ، محددة مسبقا حيث تحتل الأشكال المختلفة مواضع محددة لها رمزية ، وذلك تمشيا مع تصورات مألوفة . وبالإضافة إلى ذلك فإن المشاهد التى تظهر فيها صور بشرية ما هى إلا تصوير لبعض الحكايات والقصص الرمزية ، فتحاكى قولا صيغ لغويا فى الأصل . إن المشكلة الحقيقية فى مجال السيميوطيقا ـ التى لم تطرح بعد على قدر علمنا ـ هى البحث عن كيفية تحويل القول اللغوى إلى تمثيل أيقونى . وما هى التماثلات التى تربط بين نظام وآخر ، وهل يؤدى البحث عن تماثلات بين الأنظمة المختلفة إلى تحديد التماثلات بين علامات مختلفة ؟

(٢٦) يناقش Ch. Metz, إمكانية تطبيق التصنيفات السيميولوجية على تقنيات الصورة وبصفة خاصة السينما .

Ch. Metz, Essai sur la signification au cinéma (Paris, 1968) pp. 66 sq; 84 sqq., 95 sq.

وابتكر J. L. Scheffer قراءة سيميولوجية للأعمال المصورة ويحاول أن يحلل الصورة كما يحلل «النص» .

J. L. Scheffer, Scènographie d'un tableau (Paris 1969)

وتشير هذه الأبحاث إلى يقظة تأمل أصيل ومبتكر فى مجال السيميولوجيا غير اللغوية وتصنيفها .

(٢٧) Erwin Panofsky, Architecture gothique et pensée scolastique, trad. p. Bourdieu (Paris 1967), 104 sq.; cf. p. Bourdieu, Ibid, 152 sq.

(٢٨) تناول هذه العلاقة بمزيد من التفصيل فى بحث قدمناه فى اكتوبر سنة ١٩٦٨ إلى Convegno olivetti

(٢٩) لقد قدمت هذه التفرقة بين المصطلحين لأول مرة فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثالث عشر لجمعيات فلسفة اللغة الفرنسية الذى عقد فى جنيف فى ٣ سبتمبر ١٩٦٦ ونشر عرض هذا المفهوم فى وثائق هذا المؤتمر . وتمثل هذه الدراسة إتماما للتحليل الذى قدمناه سابقا تحت عنوان «مستويات التحليل اللغوى» . وكان بودنا ـ لكى نوضح هذه التفرقة ـ أن نختار مصطلحين لا يربط بينهما شبه مثل Semiotique, Semantique حيث أنهما مستخدمان هنا بمعنى اصطلاحى . غير أننا نرى أنهما كان لابد أن يوحيا بمفهوم «SEMA» العلامة الذى ينتميان إليه بشكل أو بآخر . ولكن هذه القضية فى المصطلحات لن تقف عائقا أمام الذين ينظرون إلى التحليل فى شموله .

(٣٠) C. L. G. pp. 148-172.

R. Godel, Current Trends in Linguistics III, Theoretical Foundations (1966), 490 sq.